انفتاح الرواية العربية الصوفية المعاصرة على الفنون (دراسة تطبيقية)

The openness of the contemporary Arab Sufi novel to the arts and the methods of its inclusion and re-creation of Sofia (an applied study)

حطاب عائشة

جامعة عبد الحميد بن باديس – مستغانم –، الجزائر، aicha.hattab.etu@univ-mosta.dz

مخبر الدراسات اللغوية والأدبية في الجزائر من العهد إلى نهاية القرن العشرين

تاريخ الاستلام: 2023/09/01 تاريخ القبول: 2024/05/27 تاريخ النشر: 2024/06/29

ملخص:

يعد جمال الغيطاني من أبرز الروائيين العرب الذين اهتموا بالتراث الصوفي وشخصياته، حيث جسد ذلك في بعض أعماله الروائية خاصة كتاب: التجليات: الأسفار الثلاثة، الذي يعتبر فتحاً جديداً فى عالم الرواية العربية المعاصرة، فهو خطاب روائي ذو خصوصية عربية تراثية.

تهدف الدراسة للوقوف على انفتاح هذه الرواية الصوفية على بعض الفنون والمعارف، وسنكتفي فيها بتأمل انفتاح روايته على: الشعر، السيرة الذاتية، التاريخ لكن هذا لا ينفي وجود أشكال أخرى تحتاج إلى نظر واستقراء.

كلمات مفتاحية: الرواية الصوفية.، انفتاح.، الفنون.، المعارف.، جمال الغيطاني.

Abstract:

The opening of the contemporary Sufi Arabic novel on the arts and the methods of inclusion and recreation of Sufism (an empirical study) Summary in Arabic: Djamel El-Ghitani is considered one of the most prominent Arab novelists who cared about the Sofi heritage and its characters, as he embodied this in some of his works ,especially the book of Transfigurations (El-tajaliat): the three books, which is considered a new opening in the world of contemporary Arabic novel.

It is a narrative discourse with an Arab heritage specificity. This study aims to find out the openness of this Sufi novel to some art and knowledge, and it will suffice in it to reflect on the openness of the novel to poetry,biography,and history, but this does not negate the existence of other forms that need consideration and extrapolation.

Keywords: Sufi novel; openness; arts; knowledge; Jamal Al-Ghitani

1. مقدمة:

تتميز الرواية الحديثة بقدرتها على استيعاب كل الأجناس الأدبية والمعارف والفنون وهذا الاختراق لحدودها الأجناسية هدفه إثراء جوهرها وتنويع وتكثيف خطاباتها، فلم تعد الرواية إبداعاً منغلقاً على ذاته بل صارت ميداناً رحباً تتمازج فيه الأجناس والفنون والمعارف.

ما فتئت الرواية العربية الحديثة تستضيف أنواعا من فنون شتى، تستعير أدواتها وتستلهم طرائقها في الصياغة والتعبير متجاوزة بذلك أسطورة "نقاء الجنس" وهوية النوع، هذا التراسل جعل الرواية المعاصرة خطابًا فضفاضاً واسعا، لم يعد يكفيه السرد التقليدي.

هذا ما يظهر جليا في مختلف الأعمال الروائية العربية المعاصرة، ولعلّ أبرز الأعمال الروائية التي مثلت هذا الانفتاح رواية: "التجليات: الأسفار الثلاثة" للكاتب المصري جمال الغيطاني

1. تعريف برواية التجليات:

"التجليات" مؤلف للخيطاني صدرت أول طبعاته سنة 1990 بدار الشروق المصرية، عدد صفحاته 828 صفحة، هو عبارة عن مجموعة من التجليات الأدبية مقسمة إلى ثلاث فصول الأول: فضل الميلاد والغربة والثاني: الاغتراب والضنا والقربى والحزن والثالث: الوداد والقوت والوداع.

وهي محاولة إبداعية تسعى إلى تأصيل كتابة جديدة تنزاح نحو التفرد.

ترجمه إلى اللغة الفرنسية خالد عثمان تحت عنوان: le livre des illuminations

ونال "الكتاب" جائزة "لورتبايو" كأهم رواية في الأم واته في الأدب المترجم من بين ثمانمائة رواية.

2. انفتاح الرواية على الأجناس الأدبية والمعارف والفنون:

أ-الشعر: إن المتأمل في الرواية الحديثة والمعاصرة يلحظ أنها كثيراً ما تقرن السرد بالشعر، وقد يكون ذلك من خلال التضمين، حيث يكون النص الشعري مجرد نص استدعته الحاجة، أو الوقوف للاستراحة والانتقال إلى مستوى آخر من الحكي، و النص الشعري قد يكون مجرد زينة لفضاء الرواية،

كما يمكن أن يكون مكوناً جوهريا في بناء السرد الروائي، نرد على ذلك أننا نجد الشاعرية تطفى على النشر في الرواية من خلال تكرار الخواطر والحالات الداخلية النفسية، كل هذا يقرب الرواية من الخطاب الشعري.

"إن صلات الأدب بالفنون الجميلة والموسيقى متعددة الأشكال شديدة التعقيد، فالشعر يستنزل الوحي أحياناً من الرسم و النحت أو الموسيقى، وقد تغدو الأعمال الفنية الأخرى موضوعات للشعر، شأنها شأن الأشخاص وموضوعات الطبيعة"[1].

وقد استثمر الغيطاني قوة الشعر وجمالتيه في رواتيه التجليات"، إذ نلحظ حضورًا كثيفا ملفتا للرض الشعري سواء استشهاداً لغيره من الشعراء أو إبداعا منه، ومن ذلك ما تلاه في خاطره في مطلع الرواية:

ومن عجب إلى أحن إليهم.

وأسأل شوقاً عنهم وهم معي

وتبكيهم عيني وهم في سوادها

ويشكو النوى قلبي وهم بين أضلعي[2]

ثم تتوالى مقاطع شعرية زينت تصل الروائي: زمزمة

إذا ما تجلى لي فكلي نواظر

وإن هو ناجاني فكلي مسامع[3]

كذلك:

لا تطلبوا المولى الحسين بأرض شرق أو بغرب

ودعوا الجميع وعرجوا نحوي مشهده بقلبي[4]

وليرتاح من أسفاره الطويلة، يستوقف برهة فيقول:

فقلت: اخلالي هي الشمس ضوءها

قريب ولكن في تناولها بعد[5]

أما الصفحة 11 من الرواية فلاحظ أن الراوي أوردها لطائفاً شعرية متتالية:

لطيفة شعرية

حين قرى الهوى وقلنا سررنا

وحبسنا من الفراق أننا

بعث البين رسله في خفاء

فأبادوا من شملنا ما جمعنا

لطيفة شعرية

كنت السواد لقلبي

فبكى عليك الناظر

من شاء يعدك فليمت

فعليك كنت أحاذر

لطيفة شعرية

وإني لأستهدي الرياح نسيمكم

إذا هي أقبلت نحوكم بهبوب

وأسألها حمل السلام إليكم

فإن هي يوما بلغت أجيبوا...[6].

وهكذا توالت التوظيفات الشعرية بين موزون وحر، ولا شك أن اختبار الكاتب لنوعية الشعر به مقصدية في ذاتها بما يتوافق مع طريقة عرضه وكيفية إيصاله المتلقى وبما يناسب أيضا الحالة الشعورية للكاتب وتجربته الروحية.

إذن فالقارئ لرواية «التجليات» يلحظ تراسلاً لافتاً بين السرد العادي والشعر، إذ استدعاه الكاتب بشكل مكثف تنفيسًا للقارئ أحياناً ومدعاة للتلطيف والاستراحة أحياناً أخرى. فجاءت هذه التقنية بديعة مختلفة زادت الرواية جمالاً وبهاءً و عليه ساعد هذا التفاعل الحميمي بين الشعر والرواية على تحقيق تفاتح جمالي، وقد وُفق الكاتب في تضمينها وإعادة إبداعها صوفياً.

3. السيرة الذاتية:

تعتبر الرواية فناً أدبياً يتسم بالمرونة والاتساع ولها القدرة على استيعاب عدة أجناس دون أن يصيب عناصرها خلل أو ضعف وهى من أكثر الأجناس قرباً وتداخلاً مع السيرة الذاتية.

اذ أنها الجنس الأدبي الأكثر استقبالاً لبقية الأجناس والرواية أكثر الأجناس الأدبية قرباً من السيرة الذاتية لأنها تترجم حياة الفرد وتعرض حقائقا عاشها وهي العمل روائى يستند في مدونته الروائية على السيرة الذاتية للروائي حيث تعتمد على الحادثة الروائية في سياقها الحكائي اعتمادًا شبه كلّي على واقعة السير الذاتية[7].

إنَّ السير الذاتية تحقق ترابطاً بين الأحداث واتساقاً وانسجاما في بنائها واختيار الألفاظ في قالب فني مؤثر وعليه فإنّ الكاتب لا يخرج من ذاته، ذاته إلا ليعود إليها وهو

يحقق أفعاله في عالمه الخارجى لتزيد من خصب حياته الباطنية والسير الذاتية ((نوع من أنواع هذه الأفعال، حيث تحقق وجود الأديب الضمني في العالم الواقعي، وبذلك توجد رابطة بين الداخل والخارج وتتحوّل الإمكانية إلى فعل... لأنها تنفذ بها إلى صمم العالم الخارجي فيحقق بينها و بين الكون ضرباً من الألفة والتوافق))[8]

و((التجليات)) أعمق أن يكون كتاباً أو رواية، هو رحلة نحو الداخل، نحو الأعلى، ورؤية صوفية قد لا يستطيع البعض استيعابها.

قالكاتب يحدث عن سيرة حياة الشخص أو أسرة هي شخص أو أسرة الكاتب نفسه وأبوه وأمه، لكنه يتخطى ذلك ليتجلى لك التاريخ والماضي والحاضر وكل الذين تأثر بسيرهم (سيدنا الحسين، ابن عربي...)

وعاش يستحضر سيرهم فكانوا أدلاء له في رحلته.

والكتاب عبارة عن ثلاثة أجزاء تحدث فيه الراوي بشكل سلس و تمتع بالجزء الأول عن ثلاث أو أربع حكايات يجعلهم بأسلوبه الرصين وقلمه الفذ متصلين رغم انفصالهم التام بالزمن والمكان و اختلاف وتباعد الشخصيات.

يتحدث عن نفسه وطفولته و شقاء والده، وفي السفر الثالث تحدث عن أمه وذكرياته معها وذكرياته بالبيوت التى عاش فيها وطفولته وجميل صبر أمه وأبيه برغم حزنهم.

في هذا الكتاب الضخيم الفريد أنطق ((الغيطاني)) الحجر والشجر والنحل والثمر، وأعاد والديه وكل ما يتعلق بهما حتى جعلنا نسمعهم ونكلمهم. فكان عالمه متميزا ملحميا مفعما بالصوفية متشربا بالأصالة العربية.

التاريخ:

يكاد النقاد يجمعون على أنَّ العلاقة بين التاريخ والرواية علاقة إشكالية حيث تتداخل وتتشابك بينهما الكثير من الخيوط، خاصة وأنهما يعتمدان على مكونات مشتركة

كالانسان والزمن والمكان والسرد القصصى، بل ذهب بعضهم في اعتبار الرواية كتابة التاريخ غير الرسمي أو التاريخ المنسي، لأنها تغوص في كثير من التفاصيل التي أهملها التاريخ الذي ينشغل بتدوين الأحداث المهمة والأسماء العظيمة وهذا ما أكده كارلوس فرنسيس حين قال: «أعتقد أن الرواية تمثل الآن تعويضا للتاريخ، إنها تقول ما يمتنع التاريخ عن قوله[9]

كما يؤكد قاسم عبده قاسم في مقالته "التاريخ والرواية"، " بأن العلاقة بين التاريخ والرواية هي علاقة تكامل واعتماد متبادل فالرواية هي وثيقة للمؤرخ الذي يريد أن يفهم مجتمعنا في حقبة معنية"[10]

إذن لا يخفى ما للتاريخ من أثر على الرواية وليس من المبالغة القول أن الرواية تعد تاريخا في وجه من وجوهها خصوصا بعد تطور الرواية العربية وظهور ما يسمى "بالرواية الجديدة، والتى تعتبر الرواية التاريخية أبرز أنواعها كونها عمل سردي يرمى إلى إعادة بناء حقية من الماضي وإذ عدنا إلى تفحص "التجليات"، نجد الغيطاني قد أحدث بها علامة فارقة في تاريخ الروابة العربية، ذلك لأنها إبداع أصيل يصل الحديث بالقديم فكراً وفناً وأدباً ولغة وأحداثا، يجد القارئ نفسه فيها بين صدق التجربة وصدق الحقيقة والتاريخ وصوت الماضي البعيد والقريب ووحدة الأحياء والأموات معا في نسيج الإنسانية.

"و التجليات"، إحدى أهم الروايات التى تستشرف العديد من العوالم و تفزع كثيرا من الأشكال الكتابية وأجزاؤها الثلاث تسير في أفق يتراوح بين الحلم والواقع وقد كان لاستخدام الغيطاني الأقانيم الصوفية

دورا في مدح الحرية الواسعة في التأويل.

حيث استطاع استنطاق شخوصه وأبطاله كما استلهم أشكالاً سردية ذات صبغة صوفية وكأنه رحالة زمني طواف بين الأزمنة، وهي فكرة في غير مألوفة ولا متكررة. إذ تتجلى لنا صورة الأب الحقيقية عبر الآباء الذين صنعوا وجداناته الروحية والسياسية (من جمال عبد الناصر حتى سيدنا الحسين مرورًا بشخصيات عديدة منها "ابن عربي"

يعرض (الغيطاني) في احدى أسفاره رؤيته "اللسادات" أول مرة حيث يتجلى ما كان مستحيلاً لديه: رأيت جمال عبد الناصر... المكان محدد والزمن معين، رأتيه في ميدان الرق أول الثمانينيات التى كانت بعيدة.. »[11] ثم تتضح كراهية راوي الغيطاني للسادات عندما يضع "عبد الناصر" موضع الحسين ويضع السادات موضع قائد جيش " يزيد بن معاوية"، أمّا جيش "عبد الناصر" فقد كان كجيش الحسين ضئيلاً قليلا.

ولكنه يضم أبطالاً كوالد الراوي ومازن أبو غزالة والرافعي و ابراهيم زيدان وعبد المنعم رياض... وتبلغ الفانتازيا ذروتها فنجد أحمد عرابي و شهداء ثورة 1919 في جيش عبد الناصر، ثم يصف السادات وجيشه فيقول: "ومن النقطة التي تعلقت بها في الفراغ، حلقت دهشا، مشمئزاً، إذ رأيت مني ما لا أطيق ذكره، من خلف عبد الناصر في حكم مصر – لعنه الله – أقبل فبقى في الخلف جباناً كعهده في عمره، يدبر ويدفع بغيره ليُنفذ وفي الوقت الملأئم نرجو بنفسه"[12].

و بعد مصرع السادات أخذه حادث الاغتيال في تجلياته، حتى كتب ما يشبه قصيدة غنائية في " خالد الاسلامبولي" قائد المجموعة التى اغتالت "السادات"

وهكذا أظهر ((الغيطاني)) عبر سطور تجلياته رفضه للقهر السياسي والاجتماعي في فترة حكم «السادات» كما نلاحظ في تطواف الغيطاني الصوفى ذكره مناطق العالم العربي المهمة والتى لها أثراً في نفسه كالرباط والمغرب يعود إلى سيناء، وما كان فيها من حرب ويستعيد أيام حربها.

4. لغة القرآن:

تعد اللغة من أهم مكونات الخطاب الروائي وأقدر عناصره على الإثارة والإندهاش وفي لغة "القحطاني" يتحد السرد بالإيحاء، إنهالقة متعرجة مخضبة بجناء الصوفية والقدسية،لغة طافحة بضروب البيان والاقتباس القرآني ونظراً لضخامة العمل الذي تجاورت صفحاته ثمانمئة صفحة لا يمكننا حصر كل الاقتباسات ولكن ستكتفي بذكر بعض منها على سبيل التمثيل مما أورده الكاتب أثناء سرده: (لم أستطع صبرا، ما لم أحط به علماً، لعلي آتي دما رأيت بقبس، الفجر وليال عشر، إن الانسان كان هلوعًا، قال قائل منهم، كنت ضالاً فهداني، مازاغ البصر وما طغى – أسفل سافلين، لكل أجل كتاب، السميع العليم ملوما محسورا، بردا وسلاما، الأجل المسمى..)

هذا غيض من فيض من توظيفات قرآنية كثيرة جمل بها الراوي نصه، ناهيك عن استهلاله لمقاطع روائية وأسفاره بآيات بينات مختلفه اقتطع بها الكاتب وتيرة السرد النمطي.

5. خاتمة:

ختاما نقول: "تجليات" الغيطاني تداخل فيها الواقع مع التاريخ مع الشعر مع الشطح الصوفي مع الأسطورة لبناء عالم غريب عجيب فريد. استحضر فيه صاحبه إلى ساحته الإبداعية طائفة من فنون جميلة سخرت لاشباع لإشباع الإطار الشكلي والرمزي.

لقد استدعى "الغيطاني"، بنباهة فائقة فنونا لغوية وغير لغوية اخترقت السرد التقليدي من أجل تأسيس جماليات جديدة منحت لعمله إضافات وإضاءات.

(والتجليات) في الوقت ذاته عمل لا ينفتح بسهولة على المتلقي نظراً لما يحمله من معرفة باطنية ترتبط بالمخلف وتتوسل بالمعرفة الصوفية لبلوغ المقصد.

6. قائمة المصادر والمراجع:

- ميشل بوتور، بحوث في الرواية الجديدة، ترجمة: فريد انطونيوس المحرر، بيروت، منشورات عويدات، 1982.
- جمال الغيطاني، التجليات: الأسفار الثلاث، بيروت، دار الشروق، 1990.
- محمد صابر عبيد، السيرة الذاتية الشهرية (قراءة في التجربة السيرية لشعراء الحداثة)، الشارقة، دائرة الثقافة والإعلام، 1999.
- عبد العزيز شرف، أدب السير الذاتية، القاهرة، مؤسسة الأهرام للنشر والتوزيع، 1998.
- مجلة الكرمل، العدد 1.
- مجلة العربي، العدد 557.

7. تهميش:

[1] ميشل بوتور، بحوث في الرواية الجديدة، ترجمة: فريد انطونيوس المحرر، بيروت، منشورات عويدات، 1982، ص 40.

[2] جمال الغيطاني، التجليات: الأسفار الثلاث، بيروت، دار الشروق، 1990، ص 07

[3] المرجع نفسه، ص 52.

[4] المرجع نفسه، ص 59.

[5] المرجع نفسه، ص 06.

[6] المرجع نفسه، ص 11.

[7] محمد صابر عبيد، السيرة الذاتية الشهرية (قراءة في التجربة السيرية لشعراء الحداثة)، الشارقة، دائرة الثقافة والإعلام، 1999، ص 115

[8] عبد العزيز شرف، أدب السير الذاتية، القاهرة، مؤسسة الأهرام للنشر والتوزيع، 1998، ص 132

[9] مجلة الكرمل، العدد 18.

[10] مجلة العربي، العدد 557.

[11] جمال الغيطاني، مرجع سابق، ص 12

[12] المرجع نفسه، ص 228